# الدين والانسان في مفهوم القرآن

## فطرة الله التي فطر الناس عليها

تعرضت الامة الاسلامية الى موجات من التأثير أدت الى ابعاد أفرادها عن الممارسة العملية لمفاهيم القرآن الكريم. وتنوع ذلك التأثير فمرة كان من داخل الامة ذاتها عندما عصفت بهاقلاقل الايام الاولى، ومرة عندما تحولت بعد قرن من نشوئها من مؤسسة يملكها المؤمنون الى ملك عضوض فأصبح افراد المجتمع الاسلامي آنذاك يتخبطون في النطاق الضيق لذاتياتهم بعد غياب القدوة الحسنة، وكان ذلك مدعاة لغياب الاسس التي وضعها القرآن للتكامل الاجتماعي والفردي عن مساحة تأثيرها الطبيعية.

وتعرض التفكير الاسلامي الى محنة الخضوع لارادة السلطان وعاش ارباب الفكر ازمة مشابهة اذ تحولت الدراسات القرآنية الى جدل لفظي وعقائدي خال من اي مضمون لتستمر الامة الاسلامية سادرة في سباتها العميق.

ودامت هذه الحالة حتى دخلت اوروبا الى العالم الاسلامي **مجهزة بكل وسائل الإستعباد** والاستعمار، وكان أول درس لقنته لابناء المسلمين يحمل التشكيك في كل القيم والافكار والعقائد السائدة بينهم. فقد أوحت اليهم أن علة التأخر والتردي في سلم الحضارة والرقي عندهم هي هذا الفكر وتلك المعتقدات. كما رسمت لهم طريق العلاج فأوحت أن الفكر الاوروبي وطريقة الحياة المستنيرة التي يعيشونها هم (اي الاوروبيون) هي الطريقة المثلى بل الوحيدة لرقي المجتمعات وتقدمها.

### ■ أين الصراع بين الدين والعلم ؟

ولم يكن المسلمون مستعدين لمثل هذه الهجمة الضالة، التي وردت عليهم في سني تأخرهم، وكانوايفتقدون مقومات الثبات والمقاومة كالفكر النير الميسر، والقوة القائمة على أساس الوحدة فانهاروا أمام الهجوم المباغت، وبهرت اعينهم اوروبا، فأضحوا **يلهجون بما لقنتهم به وتأثر المثقفون والمتنفذون بما تذوقوه على صعيد الفكر والعلم أو على صعيد القوة المادية . وهكذا بدأوا يرددون مسألة الصراع بين الدين والعلم المبني على التناقض بينهما . وقضايا تطور المجتمع والقيم الدينية . ووصل الاستسلام الى حد أن أبناء المسلمين يتلقون عن الاوروبيين نظرتهم الى الدين والاسلام . والتأريخ والفكر الاسلامي .**

لقد غاب عن اذهان المسلمين حينذاك التأريخ المر للصراع بين الكنيسة وعلماء القرون الوسطى في أوروبا، والذكريات المرة لمحاكم التفتيش وسيطرة الكنيسة على الفكر واستعمالها للاضطهاد الفكري للمحافظة على سلطتها.

وكان من اخطر الآثار الفكرية لذلك الانهزام تفسير التفكير الديني أنه نابع من جهل الانسان بعلل الظواهر التي يشاهدها فقد كان الجو الاوروبي يقول: إن جهل الانسان بعلل الحوادث الطبيعية، جعله يرجعها الى مصدر غيبي اسمه «الله»، وقد اكتشف العلم كل شيء . ولاداعي للتفكير بسبب غيبي اذن. وليبق للدين مكانة المراسيم والطقوس في المجتمع ولا فضل يستحقه ليؤثر في الحياة الاجتماعية.

### ■ الفهم القرآني للقضية

أما الفهم القرآني للدين فيختلف عن تلك النظرة تماما. ويتدرج ذلك الفهم بطريقة تتخذ من الفطرة الانسانية السليمة منطلقا تقيم عليه أساس الاعتقاد. فالفطرة تحكم بأن ماحولنا خاضع لقانون العلية الذي نقيم عليه حياتنا العملية كل الوقت، اذ لايمكن أن نتصور ظاهرة لم تكن موجودة ثم ظهرت دونما علّة وسبب.

هذا الوجود من حولنا ـ اذن ـ كل مترابط يؤثر بعضه في البعض وقد شرحت علوم الفيزياء النووية أنه حتى الذرات وأجزاء الذرات خاضعة في حركتها لما يحيط بها من قوى ومؤثرات.

**والانسان يرتبط بذلك الوجود المتناسق ، وتتدخل في ايجاده عوامل لا حصر لها تخضع كلها لذات القانون وكلها بيد رب العالمين وتحت إرادته.**

وهذا المفهوم القرآني حول الانسان كما تبينه الايات الكريمة يربطه بكل ظواهر الكون ، ويبين أنه يستطيع أن يسلك طريق تكامله ورقيه وذلك بركوبه مسيرة القوانين الطبيعية، فتكون حينئذ تلك القوانين في عونه لشق طريق تكامله ورقيه. بينما الاعراض عن القانون الكوني العام يحرفه عن مسيرته الطبيعية ويقوده الى الهلاك «فمن اتبع هداي فلايضل ولا يشقى، ومن أعرض عن

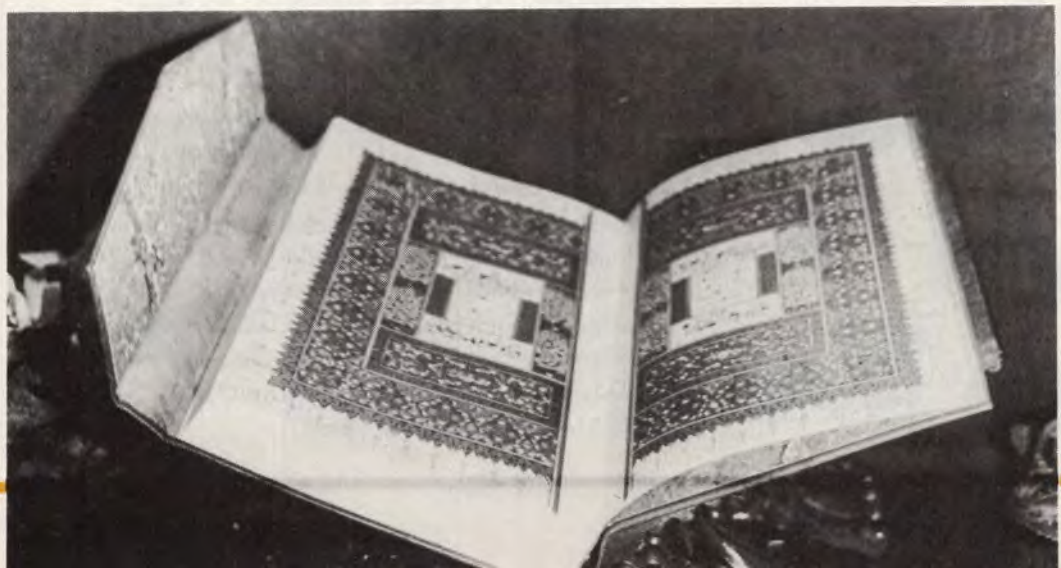

ذكري فان له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى».

كما يؤكد القرآن الكريم على أن الحياة الانسانية لاتتوقف عند موت الانسان الجسماني في الدنيا، بل أنها خالدة «قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لاريب فيه».

## ■ طريق الدين الفطري

ومن هنا فان الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الانسان ـ في نظر القرآن ـ ليضمن له سعادة الدنيا والآخرة، ويجري اتجاهه وفقا للقانون الكوني العام هو «الدين» الذي يشكل جزءا من الفطرة «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله».

فهو المنهج الحياتي الذي يوفر للانسان إن إتبعه السعادة الحقيقية، في الدنيا والآخرة اذ لا فصل بينهما.

ويبدو واضحا من التسلسل الذي سبق أن الدين يعتمد في تحديد منهج لحياة الانسان على طبيعة الوجود والانسان لا من العواطف والأهواء. «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض» فهو يتبنى موازين عادلة ثابتة في تلبيته للاحتياجات الفطرية للانسان، ولو ابتعد الانسان عن الأهواء والاغراض الشخصية وحاول أن يكتشف احتياجاته وميوله الحقيقية، فانه سوف لن يحيد عن أوامر الدين لتلبية تلك الاحتياجات الواقعية الحقيقية.

ويمكن ان نرى بوضوح أن الأهواء البشرية تبعد الانسان عادة عن تشخيص المنفعة والضرر الحقيقيين بينما يريد القرآن أن ينشئ حياة قائمة على الحق والواقع «كتابا انزل من بعد موسى يهدي الى الحق والى طريق مستقيم»

## ■ لا إجحاف بحق أحد

وفي منهج الدين ـ اذن ـ تلبى ارادة جميع افراد المجتمع دون اجحاف بحق أحد، بينما ترضخ المجتمعات المنسلخة عن منهج الدين لارادة فرد أو أفراد متعددين ولاتقيم وزنا لمتطلبات مجموع الأفراد، ولاتعطيها قيمة، كما تقيم المجتمعات التي تسمى (ديمقراطية) حياتها على أساس ارادة (نصف الافراد + ١) وتصادر ارادة (النصف ـ ١).

ويتبنى الدين تلبية الارادة الانسانية والرغبة البشرية اللتين تنبعان من فطرة الانسان وتكوينه. «الله الذي اعطى كل شي خلقه ثم هدى».

وهكذا يقرر القرآن الكريم مفهوم الدين بعيدا عن نظرة الكنيسة والاوروبيين الذين عانوا في ظلالها. ويتناول المفهوم القرآني المسألة دون النظر الى ماوقع على الارض من ظلم الانسان لأخيه الانسان باسم «المدنية» وتبقى تعاليم القرآن تتحدث للانسان لا لزيادة الجدل اللفظي الفارغ وانما تخلق الانسان الذي يعشق تلك الافكار ويسير بموجبها في حياته ضمن الدنيا والآخرة □